شخصية نادرة يهملها النقد العربي

نقد ابن أبي عتيق

للأستاذ خليل هنداوي

ما زدت خوضاً فى آثار الأقدمين إلا زدت إعجاباً بها وبهذا الجد الذى ولدها ؛ وإنك لتقلب فى كتبهم فيبهرك هذا التلون فى المادة وهذا التفنن ، وهب أنك خرجت منزعجاً لاضطراب فى الاتساق واختلاف فى الاتفاق ، فان هذا لم يكن ليذهب ببعض عجبك من هذا الجد وهذا الدأب اللذين يدلانك على عقلية حاولت أن تتأمل وتعلل !

فى كتب الأقدمين ذلك الاضطراب الذى كان لا يحسه أصحابه . لأنهم لم يعملوا أعمالهم على حساب الأجيال الآتية ، ولو فعلوا لهوّنوا على مؤرخينا كثيراً من عناء الافتراض وقياس ما لا يقاس ، ولكن أصحابنا — عفا الله عنهم — لم يريدوا أن يعطونا الثمرة ناضجة بل أرادوا أن نعمل على انضاجها وصونها . وفى كتبهم ثمرات كثيرة تنادى الأيدى وهى دانية القطوف ؛ وأذكر أنى ما جلست يوماً إلى كتاب من هذه الكتب إلا خرجت بحديث ممتع أو فائدة جميلة تدفعنى نفسى إلى التقاطها وأنى لى أن أقسم أعضاء جسدى أقلاماً تسطر !

جلست فى هذا الصيف إلى أغانى أبى الفرج التى كلما ضربها الأدباء تفجرت منها عيون جديدة . ووقفت على اسم « ابن أبى عتيق » الذى عاش فى الحجاز فى العصر الأموى ورافق تطور المدرسة الغزلية أتأمل تكرر اسمه فى كثير من المواقف مع كثير من الشعراء ، طوراً يبدو لى كناقد وطوراً كسامر ، فحصرت مواقفه فى هذه المواضع على التقريب ، فاذا بى أرانى أمام شخصية عنيدة فى النقد هى — إذا صح ظنى — أول شخصية فى الأدب العربى « اليقينى » عالجت الأدب وعملت على نقده غير مستلهمة إلا ذوقها ... ولكن أبا الفرج عفا الله عنه ترك هذه الشخصية مجهولة لأنها — فى زعمه — لم تبتكر ولم تنتج شعراً ولا لحناً ، ولكن هذه الشخصية تتردد كثيراً على الأفواه . وتغشى كثيراً مجامع اللهو والأدب ، وتصبغ كثيراً هذه المجامع بألوانها الخاصة . ومما يجعل هذه الشخصية بارزة ترددها الكثير إلى هذه المجامع المختلفة ، وتردد أصحابها اليها معتبرين رأيها فى النقد والأدب . ولا أعلم — بحسب روايات الأغانى — نقداً تحليلياً عميقاً كهذا النقد . ولقد أردت أن أوضح هذه الشخصية وأستوضح عنها فى بطون الكتب والأخبار ، وليس عندى ما يسعفنى على ذلك ؛ ولو كان ذلك سهلاً لما سهل على عقلى الذى لم أتعود إرغامه على الدخول فى هذه المنعرجات الطويلة التى تحتاج إلى تأمل طويل وأناة فى الامعان . ولكن ذلك غير مانعى من أن أغامر فى رسم ناحية من نواحى شخصية هذا الرجل العجيب المنتج فى النقد ، وأظنها الناحية الأكثر بروزاً فى الرجل

والآن من هو ابن عتيق ؟

يبدو لنا ابن أبى عتيق رجلاً يخالط المغنين والشعراء ولابد أنه كان يتذوقهم ، وأنه كان صاحب ثقافة واسعة فى الشعر والغناء تخول له الحكم فيهما ، وإن كان بعد هذا كله صاحب ذوق خاص يفهم الشعر والغناء به . ومذ كان كما يبدو يقصده الملحنون والشعراء أنفسهم يحتكمون اليه فى لحن أو بيت أو ملحن أو شاعر فلا يتباطأ فى حكمه ، ولا يقل له رأى فى ذلك . حديد اللسان والجنان والبيان ! ولولا هذه الثقافة وهذه الشهرة لما كان له مقام فى ذلك . ولقد كان عمر بن أبى ربيعة أحسن المقربين اليه ، وكان له معه عشرة حسنة ومجالس طيبة ، وكان له مع شعراء الحب والغزل أمور كثيرة ، ولابد أن حادثة من حوادث غرامه جعلته يحدب على المحبين ، ويمثل دور الرسول بينهم وبين أحبتهم

ويمتاز نقده بأنه كان نقد روح ومعان لا نقد قشور ومبان ؛ ويعود سر ذلك الى أن اللغة العربية كانت لا تزال بعيدة عن الفساد ، وأن لسان العرب كان لا يزال لساناً فصيحا ، وكان نقده أقرب الى أحاديث النوادى ، لأنه نقد بيت أو فكرة ، ولأنه نقد يلم بجانب واحد من المعنى ويهمل بقية الجوانب . ونقده ليس فيه صرامة ولا خشونة ولا صلف ، وإنما هو نقد تهيمن عليه رقة حجازية ومجون برىء يأبى إلا أن يظهر . ومن وراء ذلك تهكم بعيد ويصيب المفصل ! ولهذا التهكم جعل الشعراء يتقربون اليه ويطمعون فى اكتساب رضاته . وهو يذهب تارة فى نقده يكشف عن المعنى غطاء ثقيلا ، وطورا

يستجلي المعنى البعيد في البيت ويكشف عن قصده ، وتارة يفسد على الشاعر ما ذهب اليه ولم يفطن له ! ومثل هذا النقد أقرب الى الروح الأدبيـة في ذلك العصر وهو — بعد هـــذا — بعيد عن مثل ذلك الاختلاق الذي وضع على لسان الخنساء يوم نقدت حسان بن ثابت وأضعفت بنقدها اللغوي مواضع فخره ! لأن الوثبات الأدبية الأولى في الأمم لا ترتو إلى مثل هذه الفروق اللغوية الدقيقة التي لا تنشأ إلا عند رجال انصرفوا إلى اللغة وتدقيقها والتفريق بين فروقها ، ولو أن هـذه الوثبات تلفتت إلى هذه الفروق لقتلت كثيراً من روح نشاطها وأخمدت كثيراً من نار إبداعها . ويمتاز ابن أبي عتيق بثقافته الغنائية ، ومثل هـذه الثقافة ترقق الذهن وتلطف الحواس وتجعل للبيت المنظوم قدراً خاصا . وقد كانت هذه الثقافة الغنائية عنده سليقة طبيعية . ولقد مر ذات يوم بمعبد وهو يغني — وكان طفلاً — فقال : « إن عاش معبد كان مغنى بلاده » وعاش حتى رأى صدق نبوءته . ويمتاز بهذه الروح الخفيفة التي لا يستغني النقد ولا الناقد عنها . ويدل على ذلك مواقف كثيرة

منها أن عمر بن أبي ربيعة شبب بزينب بنت موسى الجمحية بقصيدته :

يا خليلي من ملام دعاني ... وألما الغداة بالأظعان

وكان سبب ذكره لها أن ابن أبي عتيق ذكرها عنده ووصف من عقلها وأدبها وجمالها ما شغل قلب عمر . فبلغ ذلك ابن أبي عتيق فلامه فيها وقال له : أتنطق الشعر في ابنة عمي ؟ فقال عمر لا تلمني ، عتيق ! حسبي الذي بي ... إن بي يا عتيق ما قد كفاني

لا تلمني ، وأنت زينتها لي ... أنت مثل الشيطان للانسان

فقال أبو وداعة السلمي منكراً على عمر التشبب بها « لا أقر لابن أبي ربيعة أن يذكر امرأة من بني هصيص في شعره » فأجاب ابن أبي عتيق « لا تلوموا أبا وداعة أن . . . من سمر قند على أهل عدن » ومن خفة روحه أن سمع عمر ينشد قصيدته

ومن لسقيم يكتم الناس ما به ... لزينب نجوى صدره والوساوس

ولست بناس ليلة الدار مجلساً ... لزينب حتى يعلو الرأس رامس

خلاء بدت قمراؤه وتكشفت ... دجنته ، وغاب من هو حارس

وما نلت منها محرماً غير أننا ... كلانا من الثوب المورد لابس

قال عتيق : أمنا يسخر ابن أبي ربيعة ، فأي محرم بقي ؟ فاعتذر عمر ، فقال له عتيق : يا عاهر ! هذا البيت يحتاج إلى حاضنة . فانظر ما كان أبعد هذه الروح في كشف المستور ، وما أخف روحها في التعبير عنه

ولقد يثب في تهكمه من الأدب إلى السياسـة ويغير بهما ويصيبهما بحجر واحد ويكون تهكمه في هذا الموقف الدقيق بليغاً ما بعده أبلغ ! سمع عمر ينشده قوله

فأتتها طبـة عالمة ... تخلط الجد مراراً باللعب

إن كفى لك رهن بالرضا ... فاقبلي يا هند ! قالت : قد وجب

فقال له عتيق : إن الناس يطلبون خليفة مذ قتل عثمان في صفة قوادتك هذه بدير أمورهم فما يجدونه . فاذا يستطيع المحال أن يزيد على هذا التهكم ؟ ويسمع عمر ينشده قوله

حبذا أنت يا بقوم وأسما ... وعيص يكننا وخلاء

فقال له : ما أبقيت شيئاً يتمنى يا أبا الخطاب إلا رجلاً يسخن لكم فيه الماء للغسل . ولا أدري كيف يوفق بين محرم وطاعة إلا التهكم وحده ؟

ويسمع عمر ينشده قوله :

ليت ذا الدهر كان حتماً علينا ... كل يومين حجة واعتماراً

فأجابه عتيق : الله أرحم بعباده أن يجعل عليهم ما سألته ليتم لك فسقك ! وهكذا تجد أنه يتصدى لعمر لا لأنه يضمر لعمر مقتاً أو كرهاً ، ولقد كان لعمر في نفسه منزلة لم ينزلها غيره من شعراء عصره وهو الذي تنبأ بنصف بيت كان في خاطر عمر

قال عمر : لا تلمها وأنت زينتها لي

فأجاب عتيق : أنت مثل الشيطان للانسان

فقال عمر : هو والله !

فقال عتيق : إن شيطانك ورب القبر ربما ألم بي فيجد عندي من عصيانه خلاف ما يجده عندك من طاعة ، فيصيب مني وأصيب منه

ولعمر كما ذكرت في نفسه منزلة خاصة إذ يرى فيه المثل الأعلى للشعر ، اليه يسمو الشعراء ، وبشعره يقتدي الشعر . ولقد كان يعرف شعراء عصره منزلة عمر عند ابن أبي عتيق . فكان يأتيه من يحاول مناقضته أو مجادلته فيه ، وكان الشاعر يأتي بأبيات يتحدى شعر عمر ، ولا أعلم شاعراً انثنى سالماً من نقد ابن أبي عتيق ، ولا أعلم واحداً استطاع أن يجرح له حكماً أو نقداً

(دير الزور) البقية في العدد القادم — خليل هنداوي